دور التصوف في ترقية، النص التربوي الإسلامي

الأبعاد الأدبية والجمالية

أ. د. برامة أحسن

أستاذ التعليم العالي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

إن جدلية العلاقة بين التصوف والتربية. جدلية من القوة والصلابة بمكان فقد أسهم المتصوفة من خلال أدبياتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم المتنوعة في إثراء النص التربوي الإسلامي على مستوى العبارات والألفاظ والمصطلحات والتي كشفت عن ذوق رفيع عال ورقيق وعلى مستوى المضامين المعرفية والسلوكية التي عالجوها.

إن كل باحث منصف في حقل الإسلامي يلمح بوضوح جماليات الخطاب الصوفي التربوي.

بداية إن تعريف التصوف والتربية أمر يعرفه الجميع ولذلك نتجاوزه لغة واصطلاحا إن مفقد النص التربوي الإسلامي هو بناء الإنسان وإعداده وتأهليله لنهوض بمهمة الاستخلاف في الأرض التي جاء ت في قوله تعالى: **[إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً]**[البقرة: 30] وقوله أيضا **[أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ]فِيهَا**. [هود:61]

بناء يتجه إلى جميع الإنسان الأخلاقية والفكرية والوجدانية والاجتماعية والحضارية....

ولما كانت العملية التربوية لتحقيق هذا الهدف عمليةً دقيقة وحساسة وشاقة، تتطلب جهدا ومنهجا ووقتا لنجاحها فقد أسهم الفكر الإسلامي بمختلف تياراته في تحقيق هذا الهدف الكبير منن فقهاء

ومتكلمين ومتصوفة. جهودا تشهد بفعالية هذا الفكر في بناء الإنسان وإعداده.

إن كلمات المتصوفة في تقديرنا المتواضع أحسن تعبير عن النص التربوي الإسلامي عالجوا من خلالها مشكلات النفس الإنسانية وما يرتبط بها من المباحث. وقدموا أدبا رفيعا نقلوا فيه العبارة من عالم الحس إلى عالم الروح والوجدان. لقد نجح المتصوفة على حد تعبير المرحوم زكي عبد السلام مبارك في تقديم نموذج أدبي فذ ومذهب متميزا في الأخلاق.

لقد استطاع المتصوفة بناء أدب خاص قام على حب الله والزهد تجلى من خلال حشد من الأدعية وفن المناجاة، وألوان الوصايا إضافة إلى ما ابتدعوه من فن المدائح النبوية.

إن تلك الجهود التي يطول المجال في تفصيلها لا تدل على مجرد حضور أدبي شكلي بل تدل على الحضور الفعال الذي منح للأدب أغراضا جمالية وأخلاقية، وروحية سامية. تميزت بالصدق والقوة والدقة والبراعة في اختيار العبارات وتصوير المعاني والحقائق.

يقول المرحوم زكي مبارك "ولا ينظر في أدبهم رجل له ذوق إلا عجب عن غفلة الناس عن هذا الأدب الرفيع أدب يصوّر أحوال الأرواح والقلوب[1] والحق أن للنساك والزهاد كلمات تشرق القلب والوجدان تميزت بجودة الأدب وقوة الأخلاق[2] مما يصنف في خانة النص التربوي الإسلامي الذي يعالج أسرار وجنايا النفس الانسانية.

إن قوة وترابط العلاقة بين جماليات وأخلاق نصوص المتصوفة ترابط يصنع منها وحدة متميزة.

فالناظر في نصوصهم يلمح التداخل بين ما هو جمالي وما هو أخلاقي في أدب المتصوفة فكأن كل ما هو أخلاقي هو جمالي وما هو جمالي هو أخلاقي في الوقت نفسهع فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل الفصل بين ما هو أخلاقي تربوي وما هو أدبي جمالي في عباراتهم.

لقد كانت أولى القطع الأدبية –التربوية– في وصف الدنيا والترغيب في الآخرة والدعوة إلى الزهد

---

[1]–برامة أحسن، الأبعاد الأدبية والسلوكية في التجربة الدينية الصوفية، مج جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ع 39 ديسمبر 2016، ص ص 179–180.

[2]–زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب الأخلاقي، ص 56.

وهذا الاتجاه في حقيقته امتداد للقرآن الكريم وحديث النبي ﷺ قال تعالى: «**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** [الحديد: 20].

وقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[1] .

فإذا جئنا إلى الحكم العطائية وجدناها سفرا من أسفار الأدب العالي وسفرا من أسفار الأخلاق والتربية الإسلامية لا تزال تبعث ايحاءات ذوقية ومعرفية، لا يزال الشراح قديما وحديثا يتعقبونها بالشرح والبيان ، لما اشتملت عليه من جمالية العبارة وقة الفكرة.

وإذا حاولنا تجاوز بعض الرمزية والغموض الوارد في بعض عباراته تبين أن ذلك الإغراب في المعاني كان مقصودا يتوجه إلى الخاصة دون العامة.

ومن شواهد هذه الحكم قوله:

-ادفن وجودك في أرض الخمول فما بنت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

-ان لم يحسن ظنك به لأجل وصفه حسن ظنك به لأجل معاملته معك فهل عود إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا مننا

-ومن أجمل حكمه

- كيف يتصور أن يحجبه شيء والذي أظهر كل شيء.
- كيف يتصور أن يحميه شيء والذي ظهر بكل شيء.
- كيف يتصور أن يحجبه بشيء وهو الذي ظهر في كل شيء.
- كيف يتصور أن يحجبه بشيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء.
- كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء.

[1]_ رواه البيهقي رقم 10043

- كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء.
- كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء.
- كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه لما كان وجود شيء.

-وقوله: إلهي أنا الفقير فكيف لا أكون فقيرا في فقري.

إن الشواهد كثيرة ويكفينا أنها تعبر عن لون لنص تربوي اجتمعت فيه الجمالية والأخلاقية بنحو يتصل بعالم الأرواح لا الحواس.

فإذا جئنا إلى رابعة العدوية (100هـ) رأينا كيف نقلت الحياة الروحية من دائرة الخوف إلى دائرة الحب الالهي، عبرت عنها بأبيتا شعرية في غاية الجودة والجمال من ذلك قولها:

أحبك حبين حب الهوى=وحب لأنك أهل لذلك

فأما الذي هو حب الهوى=فشغل بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له=فكشفك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا وذات لي= ولكن الحمد في ذا وذلك.

وقول القائل:

لما علمت أن قلبي فارغ***ممن سواك ملائته بهواك

فالقلب فيك هيامه وغرامه***والنطق لا ينفك عن ذكراك

إن هذه الأشعار والكلمات التي انطوت على سمو عال من الذوق والعبارة لا تحرك الوجدان والقلب فقط وإنما تعيد صياغة الإنسان، صياغة تعيد علاقته بالله.

وعلى نفس الطريق سار الحسين بن منصور الحلاج (244هـ)ومضى بكلماته ليدفع حياته ثمنا لذلك.

وبعيدا أن آرائه الفلسفية والمعرفية نجد يقول:

إلى كم أنت في بحر الخطايا*** تبارز من يراك ولا تراه.

فيا من بات يخلو بالمعاصي*** وعين الله شاهده تراه

اتطمع ان تنال العفو ممن***عصيت وأنت لم تطلب رضاه

فتب قبل الممات وقبل يوم***يلافي العبد ما كسبت يداه

وقوله:

لو كشفت أسراري***ويحث بالوجد في سري وإضماري

لكن أغار على مولاي يعرفه*** من ليس يعرفه إلا بإنكار

ما لاح نورك يوما لأثبته***إلا تنكرت منه أي إنكار

ولا ذكرتك إلا شهت من طرب*** حتى أمزق أحشائي وأطماري

أما ابن عربي فقد كانت النزعة الأدبية الذوقية والمعرفية أشد وضوحا في أشعاره وترجمان الأشواق خير دليل فضلا عن باقي كتبه.

منها قوله:

إن لي ربا كريما أجده*** كالذي نعلم أو نعتقده

هو مني وأنا منه به***ولذا في كل حال أجده

وبالرغم حتى أن معظم أشعاره دارت حول آرائه في وحدة الوجود والحقيقة المحمدية إلا أن براعة اللغة والبيان يجعلها تأخذ مكانها اللائق في السلم الأدبي والقدرة على إعطاء النص الأدبي بعدا فلسفيا وأخلاقيا وجماليا منها قوله:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة*** فمرعى لغزلان ودير لرهبان .

وبيت لأوثان وكعبة طائف***وألواح ثوراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أن توجهت***ركائبه فالحب ديني وإيماني

فإذا جئنا إلى ابن الفارض (576–632)

يقول زكي مبارك"والحق أنه شخصية فريدة بين شعراء مصر، اشتركت في تكوينه ثلاث بقاع: الشام وفيها أهله، الحجاز وإليه حنينه، مصر وفيها مقامه...وقد شغل بالشعر نحو أربعين سنة، فقد هام بالجمال الإلاهي أيما هيام فانعكس ذلك في قوة المعاني ورقتها.

ومن نماذج شعرة التي تجمع بين الفكرة والذوق وجمالية المباني والمعاني قوله:

قلبي يحدثني بأنك متلقي*** روحي فذاك عرفت أم لم تعرف.

لم أقض حق هواك إن كنت الذي*** لم أقض فيه أسى ومثلي من يف

مالي سوى روحي وباذل نفسه*** في حب يهواه ليس بمسرف[1] .

وقوله أيضا:

ما بيني معترك الأحداث والمهج*** أنا القتيل بلا إثم ولا حرج.

ودعت قبل الهوى روحي لما نظرت*** عينيا من حسن ذاك المنظر البهيج

لله أجفان عين فيك ساهرة*** شوقا إليك وقلب بالغرام شجي

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد*** أو في محب بما يرضيك مبتهج

وخذ بقية ما أبقيت من مهج*** لا خير في الحب إن أبقى على المهيج[2].

وقد لقب ابن الفارض عند الصوفية، سلطان العاشقين، وقد شهد لنفسه بهذه السلطنة الوجدانية حين قال:

كل من في حماك يهواك لكن*** أنا وحدي بكل من في حماك

فُقت أهل الجمال حسنا وحسنى*** فبهم فاقة إلى معناكا

---

[1]_ نفسه، ص 260.

[2]_ نفسه، ص 264.

يحشر العاشقون تحت لوائي*** وجميع الملاح تحت لواكا

والحقيقة أن تتبع مختلف أشعاره أمر يطول وحسبنا أننا نقدم شواهد أدبية على إسهام المتصوفة في تقديم نصوص أدبية في غاية الجمال جمعت بين قوة ورقة العبارة وسمو المعاني.

فإذا جئنا إلى المنظومات الصوفية وهي قطع أدبية فإنها تشكل نموذجا آخر من نماذج حضور النص الصوفي وقدرته في أعطاء نقلة من عالم الحس وإلى عالم الأروحا منها منظومة أبي الحسن الصباغ وقد مر وقت الضحى ببساتين قوص فسمع حمامة على شجرة تغرد فاستمع واستغرق وأنشد

حمام الأراك ألا خبرينا*** بمن تهتفين ومن تندبين

فقد شق نوحك من القلوب*** فأزريت ويحك ماء معين

تعالي نقيم مأتما للعراق*** ونندب أحبابنا الطاغين

وأسعد بالنوح كي تسعدي*** فإن الحزين يراسي الحزينا

فأبكي الدماء فصلا عن*** الدمع ويوم الفراق أبكي العيونا[1] .

وقد اتبع المتصوفة فن المدائح النبوية بكل ما تحمله من معاني التبجيل والتقدير لسيدنا مُحَمَّد ﷺ دون الخوض في الجانب المعرفي والعقدي. وإنما التركيز على تنمية وترقية الجانب الوجداني تجاه الحبيب مُحَمَّد ﷺ

ومن نماذج تلك المدائح ما قاله ابن العريف:

شدو المطايا وقد نالوا المنى بمنى*** وكلهم بأليم الشوق قد باجا

سارت ركائبهم تندى روائحها*** طيبا بما طاب ذلك الوفد أشباحا

يا سائرين إلى المختار من مضر*** سرتم حبوسا وسرنا نحن أرواحا.

أما همزية البصيري منها قوله:

كيف ترقى رقيك الأنبياء*** يا سماء ما طاولتها سماء

---

[1]_ نفسه، ص 194.

لم يساووك في علاك وقد*** حال سنا منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للناس*** كما مثل النجوم الماء[1] .

أما البردة فقوله: دع ما ادعته النصارى في نبيهم*** واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم[2] .

إن هذه الشواهد الأدبية، من كلمات المتصوفة تشكل نصوصا تربوية في قمة السمو إلى تربية الإنسان"المريد" وتنقية نفسه والارتقاء بمشاعره ووجدانه... لقد خلص المتصوفة الأدب شعرا ونثرا من الجان الحسي وتعويضه بالجانب الروحي القيمي.

إن جماليات النص الصوفي جماليات يلمحها الدارس من مختلف الزوايا سواء ما تعلق بجانب الشكل والعبارة أو جانب المضامين الأخلاقية والمعرفية فضلا عن نموذج الإنسان يتربى على موائد الشريعة والطريقة والحقيقة.

فإذا جئنا إلى بردة الإمام البصيري رحمه الله تعالى. وقفنا على ساحلها بين جمالية العبارة وقوة وصدق الروح والمشاعر وقوة وعمق المعاني لتساهم في علاج النفس وبناء الإنسان نقتطف منها قوله:

أمن تذكر جيران بذى سلم*** مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة*** وأومض البرق في الظلماء من إضم

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى*** إن اشتكت قدماه الضر من ورم

وروادته الجبال الشم من ذهب*** فأراها من نفسه أيما شمم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته*** لكل هول من الأهوال مقتحم

ويوم القيامة تخمينا شفاعته*** كما حمتنا من الأعداء شجاعته

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة*** تمشي إليه على ساق بلا قدم [3].

---

[1]_ نفسه، ص 236-237.

[2]_البردة

[3]_ بدر الدين الغزى، الزبدة في شرح البردة، الجزائر 43-147.

لقد فاضت كلمات المتصوفة بنماذج من الأدعية والاستغاثات والأوراد جمعت الملامح الأدبية والخلفية، ومن نماذج تلك الاستغاثات منظومة السهيلي المتوفى 581 حيث يقول:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع*** أنت المعد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها*** يا من إليه المشتكي والمفزع

يا من خزائن رزقه في قول كن*** أمتن فإن الخير عند أجمع

مالي سوى فقري للبابك وسيلة*** وبالافتقار إليك فقوى أدفع

مالي سوى فزعي لبابك حيلةٌ*** فلئن رددت فأي باب أقرع

حاشا لجودك أن يقنط عاصيا*** الفضل أجزل والمواهب أوسع [1].

وانظر إلى الأمير عبد القادر الجزائري حين زار المدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج فراح يستذكر أحدا قبور الصحابة وأيام جهاده للمستعمر الفرنسي فراح يقول:

تذكرت وشك البين قبل حلوله*** فجاءت عيوني بالدموع على الخد.

وفي القلب نيران تأجج حدّها*** سرت في عظامي ثم صارت إلى جلدي

إلى الله أشكو ما ألاقي من النوى*** وحملي ثقيل لا تقوم به الأيدي[2] .

إن استقصاء مختلف الشواهد في أدب الصوفية يكشف بوضح الأدبي الأبعاد الأدبية والجمالية والروحية والأخلاقية للتصوف الإسلامي.

فإذا جئنا إلى الجانب التربوي وعلاقته بالتصوف الإسلامي اتضح أماننا أن العملية التربوية كعملية علمية منهجية تتجه إلى تنمية الأبعاد الروحية والسلوكية والجمالية في شخصية المتعلم.

لقد اتجهت كلمات الصوفية وعباراتهم إلى بناء حياة روحية وأخلاقية متميزة تتصف برقة المشاعر والعواطف والالتفات اليقظ إلى جميع المظاهر الجمالية في الكون بحيث نجد المتصوف يتناغم مع الكون

---

[1]_ زكي مبارك، المرجع السابق، ص ص 66-67.

[2]_ زكرياء صبام، ديوان الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص 142.

والطبيعة في انسجام فريد إذا كان مدار الحياة الأخلاقية والتربوية يقوم على الإلزام الأخلاقي في جانبه العلمي فإن التأسيس الصوفي لحياة أخلاقية متميزة وإيجابية يركز أيضا على الجانب النظري وداخل هذا الإطار النظري تأخذ الأبعاد الجمالية مكانها في الأدب الصوفي وفي العلمية التربوية.

وفي الأخير نقول لقد قدم التصوف الإسلامي من خلال أدبياته نماذج متميزة من أدب تربوي رفيع المستوى تجلت فيه النزعة الروحية والجمالية لتقف الواحدة منها بجانب الأخرى فجمعت بين الروحية والجمالية، فكال ما هو روحي كان جماليا وكل ما هو جمالي كان روحيا.

هذه الجمالية التي تجلت في عباراتهم ووصاياهم وشعرهم والتي جمعت بين رقة وجمالية العبارة وروحانية المعاني وسموها.

-جمالية نقلت الإنسان من عالم الحس إلى عالم الروح والوجدان.

- جمالية تجلت في رقة الشخصية الصوفية.

جمالية تجلت في تناغم الشخصية الصوفية مع الطبيعة والكون.

إن المضامين التربوية والروحية والأخلاقية والجمالية للتصوف الإسلامي تؤهله لبناء إنسان جديد قادر على الوقوف أمام تحديات الحضارة المادية من العدمية والوجودية وغيرها.

ومؤهل لممارسة رسالة الاستخلاف في الأرض في بعدها الاجتماعي والحضاري.